# أُسطورة الولي (رواية سيرة الشيخ نور الدين)

**د. دعاء صابر**

"الدِّينُ أُسْطورةٌ، والأسطورةُ دِينٌ"، تختصرُ تِلكَ الكلماتُ القليلةُ فَهْمَ الحجاجي للأسطورة في كثْرةٍ من كتاباتِه النقديَّة؛ إنَّها اعتقادٌ وتصديقٌ وإيمانٌ لا شكَّ فيه؛ هذَا الْفَهمُ للأسطورة يتجلَّى في روايته "سيرة الشيخ نور الدين"، التي تُجسِّدُ "أسطورةَ الوليّ"؛ إذْ تُنبئُ روايةُ "سيرة الشيخ نور الدين" منذ اللحظة الأولى عن "وَلِيّ"، تُلصِقُه بالعالم السماويّ؛ من خلال ربط ميلادِهِ بالخوارق؛ فكان "نور الدين" بمثابة القُطب الذي تدور حوله الأحداثُ، فهو رمزُ الخير والعدل.

إنَّ الوصولَ إلى الولاية يتطلّبُ عُبورَ عتباتٍ زمكانيَّةٍ محدَّدة، تمثِّلُ كلٌّ منها عبورًا مقدَّسًا؛ يتخطَّى فيه المُريد مَقامًا ليصلَ إلى المقام التالي، حتى يصلَ إلى مرحلة الاعتراف الكونيّ بوصفه ولِيًّا، فكان مولدهُ المُحاط بالغرائبي، هو العبور الأول لنور الدين، إذ مهَّدَ له لأنّ يتكوَّن تكوُّنًا دينيًّا، فنشأ في خدمة الساحة، غير أنَّ حياتَه كانت تسير على نمطٍ واحدٍ، يستيقظُ مع الفجر ثم يعودُ مع العصر فيذهبُ إلى الساحة؛ ليقومَ على خدمة ضيوفها، ثم يعود إلى منزله. وحين يصلُ نور الدين إلى عمر الثامنة عشرة، يأتي العبورُ الثاني، حين يقرر السفرَ إلى القاهرة لاستكمال تعليمِهِ في الأزهر؛ وتُعَدُّ "الرحلةُ" تيمةً متكررةً، حاضرةً في بنية شخصيّة الوليّ، ذات مدلولٍ واضحٍ داخلَ النصّ، تتَّصِلُ بأزمنةٍ وأمكنة معينيْنِ، تخفي وراءها عتباتٍ، أو مراحلَ زمنيةً للعبور، من الدنيوي إلى الدينيّ؛ إن قوَّة "نور الدين" تنبعُ من إيمانه بالأسطورة، وعَلاقتِه بالأماكن التي تتجلَّى عليها هذه الأسطورة؛ كالساحة، والبربة، وشجرةِ الجميز، والمقابر، وأضرحة آل البيت.

تبدأ رحلةُ نور الدين الأولى بالقاهرة، فيتخذُ حِمارَه وسيلةً للسفر دون عِلم والده؛ ليحقق بهذا العمل نفسَه ووجوده، فخدمتُه للساحة وأهلِها لم يكن اختيارَه بل اختيارُ عائلتِه؛ فشكَّلتْ هذه الرحلةُ بُعْدًا مهمًّا في شخصيّة نور الدين، غيّرته كثيرًا ونقلتْهُ إلى مَصافِ الكبار؛ فأصبح يتكلَّم كلام الواثق ولا يتكلَّم إلا حين يُسأل، ومن (الذهاب إلى العودة) تتفتَّح لنور الدين آفاقٌ جديدة، اكتسب من خلالها خبراتٍ وعلاقاتٍ بعالمٍ آخر، أدخلته في اختباراتٍ حقيقيَّةٍ آلمَتْهُ وغيَّرتْهُ، لعلَّ أهمَّها حُبّه لعطيَّات، وامتحانِه بهذا الحب، قاومَهُ لكنَّهُ لم يحتملْ، ذهب إلى بيتها، وانفرد بها؛ إلا أن الخطيئة يومها لم تكتمل، أفاق نور الدين في اللحظة الحاسمة، وفرَّ هاربًا إلى منزله، ندم ولام نفسه، وشعر بالخطيئة، حاول التوبة، بقِيَ في غرفته لا يخرج منها تعذيبًا لنفسه على فعلته، لقد صار مدنسًا بصنيع

الشيطان، بكى نور الدين، رفع يديه إلى السماء سأل الله الغفران، ثمَّ بمجيء الشيخ الطيب تنفكّ أزمة نور الدين.

أعادتْهُ كلماتُ شيخِهِ إلى الحياةِ ثانيةً، فمن الخطيئة إلى التوبة، ثم تجربة الحب، التي مثَّلت عبورًا آخر في طريق الولاية، عبورًا من الحب البشري، إلى الحب الإلهي، وهي– كذلك – انتقالٌ من الدنيوي إلى الدينيّ، اختبره الله بالحب، ليعلمه الرحمة؛ فاتجه إلى زميل سكنه القديم الذي طرده من البيت القديم ليعتذر له ويُعيده، تحوَّل من القسوة والشِّدة، إلى الرحمة واللين.

ثم تأتي رحلتُه الثانيةُ إلى السودان، حيث عبورٍ آخر إلى مقام جديد، وانتقال جديد، رحلة الكشف عن الله، ورغم أنها كانت دنيويةً بهدف التجارة، فإنَّ "نور الدين" قضى معظمَ وقته بين التسبيح وتأمُّل ملكوت الله، أخلص في صلاته من أجل التطهير الروحي، تعرَّف خلالها نور الدين على عالَمٍ كبيرٍ؛ حتَّى قال لبصيري: "إنه رأى اللهَ في الطريق"؛ شهِدَ "بصيري" بنفسه كراماتِ صديقِه، رأى النجم ذا الذنب يتوهَّج حتَّى استقرّ فوق رأسه، فأدرك أنَّ هذا نجم نور الدين، وبعد العودة من هذه الرحلة، يكتمل الاختبار بالموت – موت عطيَّات – الذي مثَّل له عبورًا أبعدَ، ومقامًا أعلى في طريقه السالك إلى الله، علّمه هذا الموت الصبر؛ إذ دعا له الشيخ الطيّب– وقت أذان الفجر– بأن يمنحه الله صبرَ أولي العزم. فيكونُ موتُ عطيَّات هو نقطة العبور، والتحوُّل، الفارقة في حياة نور الدين؛ انتقل بعدها إلى مقام أعلى، بعد أن مدَّ يدَهُ ليأخذَ العهدَ عن شيخه الطيّب، سمع نصائحه بالواجبات والفروض الجديدة، ثم سحب الشيخ الطيب يده ومدها إلى صدره في الناحية اليسرى، مجاورًا للقلب، ثم دعا الله بأن يمنحه يقينًا وسلامًا دائمين.

مثَّلت علاقة الشيخ الطيب بنور الدين علاقة القطب بالمريد، الذي ينقل إليه الولاية، بعد أن يمرَّ بدرب التكوين الذي شكَّل شخصيتَه حتى استحق العبورَ إلى هذا المقام، لم تكن هذه الرحلة سهلةً، إذ خطا فيها نور الدين خطواتٍ ثابتةً محسوبةً؛ واجتاز اختباراتٍ جهَّزتْه لهذا الوصول، فاختار نور الدين طريق الجهاد، لا طريق الفناء؛ فالخلاص بالنسبة له خلاص جماعي، لا خلاص فردي، فسلك "نور الدين" دربَ الولي المتصل بمجتمعه، فكان بمثابة المُصْلِح الاجتماعي، المُؤثِّر في عالمه؛ لقد أراد "نور الدين" الخلاص للجميع، بعد أن ذاق لذّةَ القُرب إلى الله، فكان ملاذًا لأهل قريته، حوَّل مساراتِ شخصيَّاتٍ كثيرة من الدنَّس إلى المقدَّس، تبنَّى "نور الدين" هذا الطريق منذ أن عمل مدرسًا، رغم أنه حاول أن يجد لنفسه مركزًا ينفرد فيه بالعبادة، حيث اتَّجه إلى "البربة" ليختلي فيها بنفسه، فإنَّ شيخه الطيب يأتيه قائلًا:

"يا نور الدين...لا تبحث عن الخلوة بعيدًا عن الناس، فأنت للناس.. قد يخلو العبد إلى الله وهو بين الناس.. اللهم اغفر لنور الدين". (ص76)

تركَّز الجانب الإصلاحي لنور الدين في ثلاث مراحل، ابتدأها بالجهاد نحو إصلاح الأفراد، ثم الانطلاق لتحرير الأمة ضِدَّ الاستعمار الخارجيّ، وأخيرًا الجهادُ الأشمل، وهو الجهاد لنُصرة الدين، والتصدِّي لكل من يحاول هدمه بنشر الدنس، ثم إقامة العدل. ابتدأ هذا التأثير بدياب، فقد تأكَّد من خطأ توهّمه أن الشيخ كان متقوقِعًا، وسجن نفسه في هذه القرية بين هؤلاء الناس، وتأكد أنَّهُ وصلَ إلى هذا السلام من خلال اتصاله بالناس واندماجه معهم وحبه لهم؛ فيأتي زمكان "اللقاء" بين الشيخ نور الدين ودياب، نقطةَ عُبورٍ وتحوُّلٍ يتفاجأ به الجميع، فيدخل دياب على أمِّه، ويلقى بصُرة المصوغات والنقود على الأرض، ويبدأ في البكاء، يقرر بعدها الرجوع إلى قريته وأهله بعد غياب طويل.

هذا التأثير امتد إلى "رفيقةَ" هذه الغازية التي حاولت أن تُوقع به، تعدَّدت اللقاءاتُ بينهما؛ حتى جاء اللقاء الحاسم بعد غيابٍ طويلٍ سبعةَ عشرَ عامًا، لقاءَ عبورِ العَتبة الأخيرة، لقاء التوبة والانتقال إلى عالم "نور الدين"، عالم القداسة، فكان دعاؤهُ مُجابًا؛ لا يُردّ، طهَّرتْها كلماتُه من الدنس، وهكذا تتم توبتُها، وتنتهي قصةُ البيت المدنس على يد "نور الدين"، كما تنبَّأ بها الشيخ الطيب.

كان الشيخ فاعِلًا في "بصيري" أيضًا، الذي مثَّل التكوين الدنيويّ المقابل للتكوين الديني لنور الدين، كان أرضيًّا في مقابل "نور الدين" الذي كان سماويًّا، ظلَّ "بصيري" يعيش في دائرة "المدنس" إلى أن امتدَّ إليه تأثير "نور الدين، حين جاءه يقُصُّ عليه أخبار طلاقه السابع؛ فيغضب "نور الدين"؛ ليُصبحَ هذا اللقاءُ نقطةَ تحوُّلٍ في حياة "بصيري"، ليبدأَ مسارًا جديدًا طاهِرًا، ويتزوَّجُ جليلةَ، متمثِّلًا طريق "نور الدين".

لقد نال "نور الدين" اعترافًا اجتماعيًّا من كل مَن حولَه؛ فالجميع أقرَّ له بالولاية والكرامة، بعدما بصروها بأنفسهم، يتجلَّى هذا– على المستوى السردي– من خلال تعدُّد الرواة الذين يُخبرون عنه: الابن "محمود"، الصديق "بصيري"، صاحبة بيت الدعارة "رفيقة"، ابن عمه "دياب"، وأهل القرية، فهناك راوٍ جمعيّ مجهول، يظهر– على المستوى اللغوي– من خلال استخدام الأفعال المبنيَّة للمجهول؛ مثل: "يُقال، يُحكَى، ويُرْوَى.... إلخ".

لم يكن "نور الدين" متصالحًا مع السلطة بحالٍ من الأحوال؛ فكونه وليًّا جعله يرفض أن يُسْتَغَلَّ الدينُ لصالح السلطة، وإنما لتنظيم حياة الناس، والسموّ بأخلاقهم، حتَّى إنه كان يتاجرُ في الشاي والبن في القاهرة من أجل إطعام أهل الله، ولم يستخدم الدين وسيلةً للربح أوِ التَّكسُّبِ؛ لم يكن

بأيَّة حال مُستغلًا للدين أو مُستخدِمًا له؛ ظهر هذا الجانب الثَّوريّ في شخصيّته في أثناء حديثه عن الحكومة والتفكير في الخروج عليها، إلا أنَّ الثورة بالنسبة للشيخ نور الدين أحد الحلول، ولكن الوقت غير مناسبٍ لها، فثوريته كانت سلميَّة، ولم يرد منها إراقة الدماء.

ويأتي اللقاء الأخير بين نور الدين والشيخ الطيب مرتبطًا بزمكان الكهف، بعد الصلاة؛ ليكون الانتقال إلى عتبة الوصول إلى الولاية؛ يدعو الشيخ الطيب لنور الدين واضعًا يده على رأسه؛ ثم يقول: لن تحتاجني بعد الآن يا نور الدين ستكون مفتي طريقنا، فنحن نحتاج إليك.

وتنتهي أسطورة الولي بموت بطلها "نور الدين" فجاء مشهد الموت، موازيًا "للمولد" و "الحياة"، ومفارقًا لهما في الوقت ذاته، إذ شمل الجميع، كما كان في حياته يشمل الجميع، رجال فقراء وأغنياء، صغار وكبار، فلاحون وعمال من المدينة، ومن أهل القرى المجاورة، كان موته غيرَ عاديٍّ؛ إذ ظهرت ابتسامةٌ واضحةٌ على الوجه، قبل موته مباشرةً، واختفت تجاعيدُه، واكتسى بلحم الشباب، وظهر جميلًا في قمَّة وسامته، ورأى بصيري نجمه يغيب قبل موته بأربعة أيام، فعرف أن هذه علامة، أما بقية الناس ومن بينهم ابنه محمود فلم يكونوا مصدقين موتَه.

كان موتُه حدًّا فاصلًا بين عتبتين: المَوْت وما قبل الموت؛ فقد تغيَّر حالُ كل شيءٍ بعد موته، منعت الحكومة الناس من بناء مساكن على النيل، الجميزة التي عاشت عمرًا طويلًا ترتوي من ماء النيل تمدُّ جذورها إليه، ظنَّ "محمود أنّ بلديةَ الأقصر لن تتركها شامخةً في مكانها، الفيضان أخذ في الانحسار، وبدأت مياه النيل تعود خفيفة، وأخيرًا غاب النجم ذي الذنب إلى الأبد، شعر "محمود" بعدها بالحاجة إلى نور الدين، كاد يفقد الأمل، ويظنُّ أنَّ أسطورة الولي انتهت بموت والده، إلا أنَّ الإشارةَ الكونيَّةَ تأتيه حين ينظر في السماء باحثًا عن النجم ذي الذنب، ليراه صغيرًا في حالة ميلاد، ثم تأتيه إشارة ثانية عندما يسمع صوت ربابة من الشطّ الغربي، وصوت الراوي الشعبيّ يغنِّي عن الهلاليَّة.

يا مشتاق ع النبي صلي

يا قلب صلي على النبي المنتسب...

نتكلم عن أبو زيد الهلالي

أبو شاش ع القرن مايل

ووسط هذا التداخل بين صوت راوي الرواية/ وصوت راوي السيرة، يُدرِك محمود أنَّ أبا زيد لم يمُت، ونور الدين لم يمُت، والنهر لم يهزم أحد، والجميزة لن تموت؛ فتنتهي أسطورة الولي بميلاد

ولِيّ جديد، غير مُحدَّد، رُبَّما يكون ابنه محمود، الذي خبر معجزات أبيه وكراماته بنفسه، خبرها حين رآه يسبح بقوةٍ في النهر، وحين اخترق له الحائط مرتين، ليُنقذه من الوقوع في الدنس، مثلما أنقذ الشيخ الطيب نور الدين من قبل، خبرها كذلك حين صلَّى الشيخ نور الدين وراءه؛ فمحمود الوحيد الذي يمضي في طريق الشيخ "نور الدين" نحو النيل، بعد وفاته، مُتتبِّعًا خطواته، وباحثًا عنه.

على هذا النحو؛ ظهر "نور الدين" منفتحًا على جماعته ومتحدًا بها، وبرزت من خلاله شخصيَّة الولي، القائم بدورٍ اجتماعي إنساني يساعد الناس– جميعهم دون تفرقة بين مسلم أو مسيحيّ – على حلّ مشكلاتهم وأزماتهم؛ فارتبطت وظيفته بتعليم الناس، وهدايتهم إلى صراطه المستقيم، وإجارة المستجير، وإبعاد الأذى والسوء والضرر عنهم.